إنسان

بقلم بدر نشأت

– هل امد يدي فاسرق حبة او حبتين من هذا الجميز ؟ ... لن يلحظ العجوز شيئاً ، فهو يغط في نوم عميق... الوقت ظهر ، والحر لافح ، ونحن في ظل الشجرة ... هو نائم وانا جائع ... وحبات الجميز تتوهج في قاع السلة وتخطف بصري وتثير الجوع الكافر في احشائي... وهل امد يدي الى السلة ؟

مضى ذلك الخاطر اللعين يذرع عقلي دون انقطاع جيئة وذهاباً ، والطرقات مقفرة والشمس متقدة والوجود مختنق ساخن والرجل يغط في النوم ...

كان عجوزاً في ثوب عتيق وقد امتد جسده اليابس على الارض واختفى رأسه بين ذراعيه ... لا شك انه بائع جميز اتعبه الصياح وجوب الطرقات ، فلاذ بظل الشجرة .. ولم اكن استبين من ملامح وجهه سوى زاوية من فمه المنفرج كان الذباب يغوص فيها ويلهو ...

وكانت السلة الى جواره والجميز في قاعها ... فهل امد يدي فآخذ حبتين واغادر المكان ؟ .. وحاصرت عيناي جسد الرجل وانسابت يدي في خفة حتى غابت داخل السلة وعادت بحبة جميز . كانت لذيذة ممتعة ، خلت لها مذاق لحم الدجاج الشهي وهي تلين تحت اسناني ، حتى اذا ما استقرت في جوفي اندلعت به حمى الطعام ، انفتح في مرات وغابت حبات .. واحسست بالحياة تدب في جسدي وبالوجود المرتعش يستقر من حولي...

لم استطع ان امنع نفسي بعد ان ذقت اول ثمرة ، فأخذت التهم الحبة اثر الاخرى واستزيد من ذلك الاحساس الطاغي بلذة الطعام والشبع .

وكانت يدي قد سلكت طريقها الى السلة وانسابت في جوفها حين فزع العجوز من نومه فجأة كالمسوع ، واستوى جالساً يجيل النظر حوله مرتاباً فلقاً . كان وجهه معروقا مجعدا باهتا كورقة نقد بالية ... لقد شاهدني وقطع حركة يدي ووعى كل شيء فاتسعت عيناه وتلوت ملامحه وصرخ في وجهي بازدراء :

– لص ... كنت تسرق !

ثم جذب السلة اليه ، وأسرع ملهوفا يطل الى داخلها ، وعاد يساط علي عينيه الحمراوين ويصرخ في حنق شديد « كنت تسرق ! »

لم أجب ... وظل الرجل يلفح وجهي بنظراته الحامية ثم جاء صوته الباتر يزعق « لص ... »

كان وجهي جامدا صلبا .. وكانت نفسي مرتعا لآلاف المشاعر الثائرة بالسخط والنقمة على الوجود والبشر والدنيا باسرها ... تقابلت نظراتنا فبصق العجوز على الارض ، ثم اعتدل في جلسته وانفجرت منه ضحكة شوهاء انفرج لها فمه الخرب وساد الصمت ... ومضت لحظات ثقيلة كأنها ساعات اتى بعدها صوته يسأل في هدوء :

– هل أخذت كفايتك ؟ ...

خلته يمزح في سخرية ويلعب بمشاعري ... فزاد انقباضي ، الا انه مد يده بالسلة الي ، وسالت على وجهه بسمة طيبة وقال في الفة :

– خذ ما تشاء ... انه جميز ولا شك انك جائع ...

ولمعت عيناه العسليتان ببريق باسم ، وكأن بهما دموعا . لم اجب ، فقد أذهلني تحوله وهرول في جسدي اضطراب وجمت مشاعري مذهولة متخابطة ... ومضى يقول :

– هون عليك يا بني ...

وضربني في كتفي مداعبا :

– لا تبتئس هكذا ... كلنا نعرف الجوع ... انه كافر لعين !! ...

وبصق على الارض في احتقار وعاد يبتسم ... وكنت لم ازل جائعا والجميز يلوح مغريا في قاع السلة ، الا انني لم اقو على مد يدي ...

ولاح لي ان الكهل على اتصال خفي بما يختلج في نفسي ، فقد مضى يتبسط معي في الحديث ويتردد الي كمن يستميل كلبا ضاريا .

– لا يأخذنك غضبي .. فانني اغضب سريعا واهدأ سريعا ايضا ، ولا يستطيع احدنا ان يقمع الغضب في وقته لانه اسرع الانفعالات الى امتلاكنا ، والحياة يابني دائما تجبرنا على اتيان اشياء كثيرة لا ذنب لنا فيها ...

واستراح الكهل في جلسته وبعث الي بنظرة آسفة من جانب عينه واردف :

– انها لحظة مظلمة ينطفىء فيها العقل ...

وساد الصمت بيننا ... كنت أود أن أقول شيئا .. أي شيء .. إلا أنني كنت مذهولاً مأخوذ الاحاسيس لا اجد بنفسي شعوراً واضحا واحدا استطيع التعبير عنه ...

قال محتدا :

– لماذا انت منقبض هكذا ؟ .. هل اتيت ذنبا ؟ نحن لا نذنب حين نكون جياعا ...

واضاف – اراك لم تأخذ شيئاً من الجميز ... مد يدك ...

وفرن جملته بأن مد يده الى السلة فأخذ حبة غيبها في فمه وتحركت شفتاه المضمومتان في حركات مضحكة فبان كأنه يمتصها . بينما كانت عيناه تشعان بنظرات قوية واثقة ... فابتدأت استكين اليه وأخذت تنساب في مسالك نفسي بعض المشاعر الانسانية التي افتقدتها منذ زمن بعيد ... احسست بالخجل والاضطراب .. وامتدت في نفسي بعض خيوط الاحترام لذلك الرجل الطيب ...

سألني وهو يحول وجهه الى نهاية الطريق :

– من اين انت يابني ؟

فأجبت في ايجاز :

– من الصعيد ... كنت اعمل مع مقاول وبنينا مصحة في احدى القرى ..

واسرع العجوز يقاطعني قائلا :

– اهي تلك البناية الكبيرة في اطراف القرية القبلية ؟..

اجبت – لا

ومرت لحظات صمت ثم جاء صوته هامسا يقول:

– الحياة صعبة ...

وارتفع صوته في عزم وقوة حين قال:

– ولكن يجب ان نصمد ، لها ان نعمل شيئا حتى لا نموت جوعا ... انني احمل سلتي كل يوم وأظل اجول الطرقات حتى احس بنفسي تتضاءل وبقلبي يكاد يقف ، وافدامي تكاد تهوى ... واخيرا ربما اوفق وأبيع بقرش ... انني أمقت هذه الحياة ... أزدريها ... ولكن ما دمنا قد أتينا اليها فلا أقل من الصمود حتى ننتهي ... وينتهي دورنا ...

ومضى الرجل يحدثني عن نفسه وبؤسه ... فلقد احس انني بائس فقير مثله فأنهه وأتقبل شكاته وانني صنوه احد الذين نبذتهم الحياة دون ذنب ... احد الذين يجوعون ويتألمون ويفهمون ، ويشاركون الآخرين ما يحسون به ، وانني انسان محروم شريد لا املك الا ان احقد ولا املك الا ان

مُسابقة «الآداب» الشعرية

تدعو « الآداب » شعراء العربية في مختلف اقطارهم الى المشاركة في مسابقة شعرية تتناول الموضوعات التالية :

اولاً – عودة اللاجئين

ثانياً – الوحدة العربية

ثالثاً – المرأة في المجتمع العربي

رابعاً – حرب على الاستعمار

خامساً – حرب على الاقطاع

الشروط

– يحق للشاعر ان يشترك في اكثر من موضوع واحد

٢ – يحسن بالقصيدة الا تتجاوز مئة بيت ولا تقل عن ثلاثين

٣ – لا ضرورة لوضع اسم مستعار للشاعر

٤ – تنتهي المسابقة في آخر تشرين الاول القادم ١٩٥٤ .

الجوائز

الاولى – ٣٠٠ ليرة لبنانية او ما يعادلها

الثانية – ١٢٥ » » »

الثالثة – ٧٥ » » »

اعيش ضائعاً بين تلك الفئة المتخمة التافهة التي يعج بها كل مكان ولا احساس لها الا بنفسها ...

قال بنغمة شاكية :

– لقد تعبت من الحياة .

وتنهد وهز رأسه ومضى يقول في صوت يجمده الاسى : كانت لي يوما ارض وابن ... سبحان الدايم .

ثم مد يده الى قدمه الحافية المتربة يبعد عنها الذباب وسهمت عيناه وتجمعت ملامحه في انقباضة قاسية .. وكنت قد استرحت اليه والى حديثه عن حياته الشقية المكافحة فأحسست انه ضائع مثلي .. لا غد له ولا حاضر .. وكان اكبر ما حببني اليه هذه الفلسفة الفطرية التي ينضح بها حديث المكافحين في سبيل العيش فهي كل ما استطاعوا اخذه من يد الحياة ...

وضرب الرجل يده في البسلة وأخرجها ليدفع الي حبتين من الجميز مبتسما في مرات وهو يقول :

– الارض ذهبت والابن في السجن ... كان لي نصف فدان .. نصف فدان يطل مباشرة على النهر .. أرض جيدة كانت تغل قنطارين قطنا ولا تعطي اقل من ثلاثة ارادب قمحا .. لقد عرض علي يوماً اربعمائة جنيه ثمنا لها فرفضت ، كنت اخدمها انا وابني ، ولكن كان لنا جار غني تفصل ارضي جانبا من اراضيه عن النهر ، فقامت بيننا خلافات على الري استمرت سنوات فما رأى الا ان يتحايل على أخذ الارض منا .. تارة بالمادة وتارة بالقوة .. فعارضنا وصرخنا ... لجأت انا العجوز الى المحاكم ولجأ ابني الشاب الى القوة ...

وصمت الرجل ليجمع بصقة اخذت طريقها الى الارض ثم عاد يقول بسرعة :

– الا ان جارنا كان يمتلك الشيء الوحيد الذي يجعله دائما على حق ... كان يمتلك المال فذهبت الارض اليه ... وذهب الابن الى السجن ...

ودعك الرجل عينيه بأصابعه وقال في صوت بائس :

– وها انا كما ترى ... رزقي على الله ...

وهز رأسه وتابع حديثه :

– ان هذه الحياة اللعينة تهزأ بنا!!... لقد أوجدت بنا الحاجة الى ثلاث وجبات يومياً .. وها نحن نسعى وراء وجبة واحدة ... ولا نجدها ...

واستحلب الرجل لعابه وبصق في عنف فأحدث في الهواء صوتا كضربة السوط ... ثم ضرب يده بحركة عصبية في صدريته وأخرج علبة فديمة من الصفيح ومضى بأصابعه المرتعشة يعمل في لف سيجارة ، ومر بلسانه على حافة الورقة وبرم اللفافة بين اصابعه وقدمها الي قائلا :

– أتدخن ؟... خذ لفافة ...

وابتدأ يلف لنفسه سيجارة اخرى ... ومضيت ارقبه في هدوء ... كانت اصابعه الهزيلة تمر فوق الورقة مرتعشة وتمتد الى علبة الدخان دون استقرار ، ولما فرغ من لف سيجارته وضعها في فمه وأشعلها . ثم استند الى جذع الشجرة وقام في تثاقل حتى اعتدل واقفاً ليرمي بنظرة ساهمة الى نهاية الطريق ويتنهد في تكاسل قائلا :

– لقد حانت عودتنا الى الشقا ...

وحول وجهه الي وظل برهة ينظر في عيني . ثم اسرع يهز رأسه في تأثر ويقول :

– السلام عليك ... وفقك الله يابني

وطوح سلته وراء ظهره ... وابتدأ يسير ...

فوقفت واجماً مضطرباً احس بقلق وانقباض وانا أرقب الرجل وهو يسير على مهل منقلا قدميه في اجهاد وسلته الصغيرة خلف ظهره ، ودخان لفافته يتثنى في الهواء ... والشمس متقدة والحر لافح والطريق ممتد طويل ...

القاهرة

بدر نشأت

من « رابطة النهر الخالد »